الابعاد الحضارية والسياسية في وثيقة المدينة

م. د. مؤيد صابر حميد العبيدي (*)

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ

سورة الأنبياء الآية ٩٢.

مما لاّ جدال فيه تعتبر وثيقة المدينة التي سنها رسول الله محمد (ص)من أقدم الوثائق الدستورية الإسلامية ؛ إذ تعد القاعدة الأولى والأساسية لبناء مجتمع سياسي حضاري في العالم ، تستهدف هذه الوثيقة بناء العلاقة المتينة بين مواطني الدولة الواحدة مهما تعددت معتقداتهم الدينية ، إذ تعد هذه الوثيقة أو الصحيفة كما سنرى في فقرات هذا البحث منطلقا لبناء المجتمع الذي يرتبط بمعاهدة تعاقد أو وثيقة شرف تحفظ لجميع المواطنين حقوقهم وأمنهم ومعيشتهم وحرياتهم .

فالعلاقة بين المواطنين أنفسهم من جهة وبينهم وبين السلطة والدولة من جهة أخرى هي من الأمور المهمة والضرورية التي أولاها الإسلام أهمية بالغة في مرتكزاته الفكرية ولاسيما في الفكر السياسي الإسلامي ، والهدف هو بناء دولة ذات مؤسسات اجتماعية وسياسية واقتصادية وأمنية رصينة لتكون تجربة رائدة في بناء المجتمع الحضاري ومن هذا المنطلق اعتبرت وثيقة المدينة من أقدم النصوص السياسية في الإسلام . ومن هنا جعلت خطة وفكرة البحث بالصورة الاتية:

لقد قسمت هذا البحث على اربعة مباحث هي كالاتي :

المبحث الأول : أهم المعالم الدستورية التي تضمنتها وثيقة المدينة .

المبحث الثاني : تحقيق العدالة والمساواة وحل النزاعات في اطار المجتمع الواحد.

المبحث الثالث : تحقيق مبدأ التعايش السلمي والمجتمعي وتكريس مبدأ المواطنة .

المبحث الرابع : المعطيات السياسية لوثيقة المدينة .

(*) كلية بلاد الرافدين الجامعة

muayadalobaidi3@gmail.com

تمهيد

وقبل الخوض في هذه المباحث نرى لزاماً علينا كتابة نص الوثيقة وكما جاءت في كتب السيرة التي نقلها المؤرخون [1].

(نصّ الوثيقة)

« هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) نبي المؤمنين والمسلمين من قريش (وأهل يثرب) ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم

- إنّهم أمة واحدة من دون الناس.

- المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

- وبنوعوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

- وبنوالحارث (بنوالخزرج) على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

- وبنوساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

- وبنوجشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

- وبنوالنجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

- وبنوعمروبن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

- وبنوالنبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

- وبني الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

- وأنّ المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أنّ يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، أنّ لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

- وأنّ المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وأنّ أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم.

- ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن.

- وأنّ ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم، وأنّ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

- وأنّه من تبعنا من يهود فأنّ له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

- وأنّ سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله الاّ على سواء وعدل بينهم.

- وأنّ كل غازية غزت معنا يعقب بعضهم بعضاً.

- وأنّ المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماؤهم في سبيل الله.

- وأنّ المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وأنّه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن.

- وأنّه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فأنّه قود به الاّ أنّ يرضى ولى المقتول (بالعقل)، وأنّ المؤمنين عليه كافة لا يحل لهم الاّ قيام عليه.

- وأنّه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أنّ ينصر محدثاً أو يؤويه، وأنّه من نصره أو اواه ، فأنّ عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

- وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فأنّ مرده إلى الله وإلى محمد(ص).

- وأنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

- وأنّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم الاّ من ظلم نفسه وأثم فأنّه لا يوتغ الاّ نفسه وأهل بيته.

- وأنّ ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

- وأنّ ليهود بن الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

- وأنّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

- وأنّ ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

- وأنّ ليهود بني الأوس مثل ليهود بني عوف.

- وأنّ ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف الاّ من ظلم وأثم ، فأنّه لا يوتغ الاّ نفسه وأهل بيته.

- وأنّ جفته بطن من ثعلبة كأنفسهم.

- وأنّ لبنى الشطبية مثل ما ليهود بني عوف وأنّ البر دون الإثم.

- وأنّ موإلى ثعلبة كأنفسهم.

- وأنّ بطانة يهود كأنفسهم.

- وأنّه لا يخرج منهم أحد الاّ بإذن محمد(ص). وأنّه لا ينحجز على ثأر جرح

- وأنّه من فتك فبنفسه ، وأهل بيته ، الاّ من ظلم. وأنّ الله على أبر هذا.

- وأنّ على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم، وأنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأنّ بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم. وأنّه لا يأثم أمره بحليفه وأنّ النصر للمظلوم.

- وأنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

- وأنّ يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

- وأنّ الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

- وأنّه لا تجار حرمة الاّ بإذن أهلها.

- وأنّه ما كأنّ بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فأنّ مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله (ص)، وأنّ الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

- وأنّ بينهم النصر على من دهم يثرب.

- وأنّه لا تجار قريش ولا من نصرها.

أ - وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنّهم يصالحونه ويلبسونه، وإنّهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فأنّه لهم على المؤمنين الاّ من حارب في الدين.

ب- علـى كل أناس حصتهم مـن جانبهم الذي قبلهم.

- وأنّ يهـود الأوس مواليهـم وأنفسـهم لأهل هـذه الصحيفة مـع البر المحض مـن أهل هذه الصحيفة، وأنّ البر دون الإثم لا يكسب كاسب الأعلى نفسـه وأنّ الله علـى أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

وأنّـه لا يحول هـذا الكتاب دون ظالـم أو آثم، وأنّه مـن خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة الاّ مـن ظلـم أو آثم، وأنّ الله جـار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله (ص).

هـذه الوثيقة أو الصحيفة أو دسـتور المدينة هـي اقـدم نص سياسـي إسـلامي ، بنيت عليه العلاقـة بيـن مواطني دولـة النبـي (ص) في يثرب» [٢]

وهنا تجدر الإشـارة إلى أنّ عالم الاجتماع المعروف جانّ جاك روسـو كان قد تحدث عن العقـد الاجتماعـي الافتراضـي ، لكـن هنا في وثيقـة المدينة نـرى إنّ رسـول الله (ص) بنى وأسس تأسيسـا حقيقيا لبناء مجتمع ودولة وفق عقـد اجتماعي حقيقي وليـس مفترضاً ؛ إذ إنّها تجربـة عملية لقائد إسـلامي رباني عظيم يريد أن يبني دولته التي تتألف من مكونات مجتمعية مختلفة فـي الدين والعقيدة لتتشـكل في ضوئها أمة موحدة، وهذا مّما يؤكد قدرة الفكر السياسي الإسـلامي على بناء الدولة العالمية وفق أسس حضاريـة سـليمة ، والقران الكريـم يؤكد هذه الحقيقـة بقوله تعالـى : { كَأَنّ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَـابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُـمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَـا اخْتَلَفُوا فِيـهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ الاّ الَّذِيـنَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُـمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَـا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِـهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} سورة البقرة اية ٢١٣.

وقال تعالى : { أنّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} سورة الأنبياء اية ٩٢ .

يقـول صاحـب الميزان فـي تفسـير الآية الأولى : (الآية تبين السـبب في تشـريع أصل الدين وتكليف النوع الإنساني به ، وسبب وقوع الاختلاف فيه – وهو نوع مفطور على الاجتماع والتعـاون – كأنّ في أول اجتماعه أمة واحدة ، ثم ظهر فيه بحسـب الفطرة الاختلاف في اقتناء المزايـا الحيوية ، فاسـتدعى ذلك وضع قوانين ترفـع الاختلافات الطارئة ، والمشـاجرات في لوازم الحياة ..... واصلحت بالعبادات المندوبة إليهـا ببعث النبيين ، وإرسـال المرسـلين ..... فالديـن الإلهي هو السـبب الوحيد لسـعادة هذا النوع الإنساني ، والمصلح لأمر حياته ، يصلح الفطـرة بالفطـرة ويعـدل قواهـا المختلفة عند طغيانها ، وينظم للإنسـان سـلك حياته الدنيوية والآخروية ، والمادية والمعنوية) [٣]

ويقـول في تفسـير الآيـة الثانيـة : { الأمة جماعـة يجمعهـا مقصد واحـد ، والخطاب في الآيـة على ما يشـهد به سـياق الآيـات خطاب عام يشـمل جميع الأفراد المكلفين من الإنسان، والمـراد بالأمة النوع الإنسـاني الذي هو نوع واحـد .... والمعنـى : إنّ هذا النوع الإنسـاني أمتكم معشـر البشـر وهي أمـة واحـدة وانا – الله الواحـد عز اسـمه – ربكـم إذ ملكتكم ودبرت أمركـم فأعبـدوني لا غير } [٤] .

المبحث الأول : أهم المعالم الدستورية التي تضمنتها وثيقة المدينة .

جاء النبي الأكرم محمد (ص) بدين الإسلام من عند الله رحمة للعالمين كافة قال تعالى { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} سورة الاعراف اية ١٥٨ ، بشيراً ونذيراً لينقذ البشرية من الضلالة إلى الهداية والرشاد ، وبما أنّ (الإسلام دعوته إنسانية عامة بعث بها النبي محمد (ص) إلى الإنسانية كافة في مختلف العصور والبقاع بغض النظر عن الخصائص القومية والإقليمية وغيرها) (٥) .

إذ إنّ الإسلام مشروع حضاري للإنسان والمجتمع ومن ضروراته إقامة دولة الحق والعدل فاصطفى من عباده رسلا مبشرين ومنذرين ليعملوا على إقامة هذه الدولة العادلة قال تعالى : { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ أَنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } سورة الحديد اية ٢٥ .

ومنذ أن استقر رسول الله (ص) في المدينة المنورة بعد هجرته إليها من مكة المكرمة، بادر إلى وضع دستور مدني مع أهل يثرب ضامنا للحقوق والحريات ومحدداً لسلطات الدولة وأركانها ومؤسساتها التشريعية والتنفيذية والقضائية وسمي هذا الدستور فيما بعد بوثيقة أو صحيفة المدينة ؛ إذ تضمنت هذه الوثيقة عدة معالم دستورية كأنّ أبرزها ما يلي :

أولاً : تحديد المرجعية العليا للسلطات الثلاث.

أكدت وثيقة المدينة أنّ المرجعية العليا للسلطات الثلاث المتمثلة بالسلطة القضائية والتشريعية والتنفيذية ، إذ نصت على أنّ المرجع في فض النزاعات بين مكونات مجتمع المدينة وافرادها هو الله تعالى ورسوله محمد (ص)، وهي سلطة عليا حاكمة ومرجعية كبرى تقوم بالفصل بين القضايا المختلف عليها منعاً من قيام اضطرابات محلية داخل مجتمع المدينة ، وفي الوقت نفسه تؤكد الوثيقة على سلطة الدولة بقيادة الرسول الأكرم محمد (ص) كرئيس للسلطة التنفيذية فجاء في نص الوثيقة : (وإنّكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فأنّ مرده إلى الله وإلى محمد (ص) وبذلك حدد الرسول (ص) مركز القرار النهائي الحاكم على الجميع فيكون النبي الأكرم حريصاً على تنفيذ أوامر الله تعالى في تجسيد الحاكمية الإلهية على الأمة فيقول تعالى في كتابه العزيز : { مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ الاّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ أَنِ الْحُكْمُ الاّ لِلَّهِ ۚ أَمَرَ الاّ تَعْبُدُوا الاّ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} سورة يوسف اية ٤٠ .

ولذا فإنّ ما يؤكد أنّ الرسول محمد (ص) هو رئيس السلطة القضائية المركزية العليا هوما جاء في هذه الوثيقة التي نصت على : (على أنّه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف مشادة ، فأنّ مرده إلى الله وإلى محمد رسوله (ص)) وبذلك فقد بسط سلطته القضائية إذ أنّ الأوامر الإلهية واجبة الطاعة وملزمة التنفيذ ، فثبت أنّ الرسول محمد (ص) قد بادر بهذه الأطروحة الرائعة والإلهية ليمتلك السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية .

ثانياً : مفهوم « الأمة « في وثيقة المدينة.

قام رسول الله (ص) بحركة انقلابية تغييرية في الواقع الاجتماعي للجزيرة العربية آنذاك ، فلقد تحول المجتمع من مجتمع شعاره القبيلة والتبعية للغير إلى شعار جديد هو الأمة الواحدة التي تدين بدين واحد ومعتقد واحد لتعبد إلها واحداً، فلكل من إعتنق الدين الجديد وآمن به دخل ضمن إطار أمة الإسلام وأمة محمد (ص) وجاء في كتاب الله العزيز ما يؤكد ذلك بقوله تعالى : { أَنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} سورة الانبياء اية ٩٢ .

وقوله تعالى { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } سورة ال عمران اية ١١٠.

فذكرت الوثيقة ما نص عن مجتمع المدينة (أمة واحدة).

فأصبح الولاء لله تعالى ولرسوله ، والاحتكام للشرع وليس للعرف كما كان سائداً في المجتمع الجاهلي القبلي ، وبذلك يقول أحدهم : (فلقد انصهرت طائفتا الأوس والخزرج في جماعة الأنصار ، ثم انصهر الأنصار والمهاجرون في جماعة المسلمين وأصبحتا أمة واحدة)[٦] .

كما أنّ الوثيقة اعتبرت اليهود جزءاً من مواطني الدولة الإسلامية ، وعنصراً من عناصرها ولذلك اشارت الصحيفة : (وإنّ من تبعنا من يهود ، فإنّ له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم)، ثم زاد هذا الحكم ايضاحاً ... إذ نص فيها صراحة بقوله: (وأنّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ...)[٧].

وممّا يؤكد ذلك ما ذكره أحد الباحثين بقوله : (وبهذا نرى أنّ الإسلام قد اعتبر أهل الكتاب الذين يعيشون في أرجائه مواطنين ، وأنّهم أمة مع المؤمنين ما داموا قائمين بالواجبات المترتبة عليهم ، فاختلاف الدين ليس – بمقتضى أحكام الصحيفة – سبباً للحرمان من مبدأ المواطنة[٨] .

وأصبح بذلك مفهوم الأمة الواحدة ثابتاً في ضوء ايات القرآن الكريم وبما جاءت به صحيفة ووثيقة المدينة فأصبح هذا العنوان «الأمة الواحدة « معلماً بارزاً في الوثيقة التي جاء فيها : (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب محمد النبي (ص) بين المسلمين والمؤمنين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنّهم امة واحدة ....)

أي إنّ جميع أهل المدينة ومن حل معهم وجاهد معهم كلهم امة واحدة فاشترطت هذه العبارة شرطها الأول هو الحلول معهم في ضوء السكن في المدينة والثاني هو المجاهدة في سبيل الله مع المؤمنين .

ثالثا : تحديد أركان الدولة.

تعرف الدولة في القانون الدستوري الحديث بأنّها : (مؤسسة تتكون من مجموعة من أفراد الشعب، يقيمون على إقليم جغرافي معين ، ويخضعون لسلطة سياسية حاكمة لها السيادة على الإقليم وعلى أفراد هذه المجموعة)[٩] .

لذلك يؤكد البعض في هذا الصدد بأنّ أركان الدولة هي :

١- الشعب

٢- إقليم الدولة ذوسيادة

٣- السلطة السياسية (حكومة تنفيذية)

٤- الدستور

وعندما نبحث في فقرات وثيقة المدينة نرى أنّ رسول الله (ص) قد أرسى معالم وعناصر وأركان الدولة ، إذ أكدت وثيقة المدينة هذه الأركان في نصوصها فجاء فيها ما نصه : (وإنّ يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة) أي إنّها أرض حرام لا يجوز أن يقطع الشجر فيها فما بالك في الأموال والأنفس [١٠] .

أي إنّ الحدود والجغرافية لإقليم الدولة التي مركزها المدينة لها حرمة وهي ما تسمى حالياً بالسيادة لهذه الحدود الجغرافية التي سميناها بالاقليم ، ثم تحدثنا سابقاً عن الأمة الواحدة التي هي الشعب المتمثل بمواطني المدينة ، ثم أنّ النبي الأكرم (ص) بقيادته الحكيمة والربانية يمثل؛ السلطة الحاكمة التنفيذية وكذلك يمثل السلطة التشريعية والقضائية كمرجعية عليا في هذه السلطات جميعها ولذا إنّ هذه الوثيقة قد حددت أركان دولة الرسول الأكرم الفتية فكانت المدينة نقطة ومركز انطلاق الدولة الإسلامية التي سوف تتسع مستقبلا في ضوء الفتوحات التي قادها رسول الله (ص)، (فهو يبدأ من عاصمة الدولة « المدينة » ويتسع ليشمل الكرة الأرضية بأسرها)[١١] وكما أكدت على ذلك النصوص القرانية : قال تعالى : { قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ أنّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } سورة الاعراف اية ١٢٨ .

وكما أنّ مفهوم الآية هو مفهوم ينفتح على الإنسانية جمعاء إذا ما استجيبت لنداء الله وأذعنت للرسالة الإسلامية الخاتمة ، وخلاصة القول تبين لنا بأنّ وثيقة المدينة قد حددت لنا معالم وأركان الدولة المتمثلة بالأمة الواحدة أولاً: التي تشمل المكونات الاجتماعية من مسلمين والداخلين في إطار هذا التحالف ، وثانياً: الإقليم الذي تم تحديده بحدود جغرافية معينة شرقها وغربها، وشمالها وجنوبها ، إضافة إلى قدسيتها وحرمتها والتي يجب عدم انتهاك سيادتها وحرمتها وذلك بالحفاظ على ثغورها والدفاع عن شرفها ، وثالثاً: تمثلت بسلطة الرسول الأكرم التنفيذية الذي يشرف على تطبيق التشريعات والقوانين الإلهية الحاكمة المتمثلة بالدستور الإلهي، رابعاً: فالوثيقة حققت معالم أركان الدولة المتمثلة بالأمة الواحدة ، والإقليم الواحد مركزه المدينة ذوالسيادة الكاملة، وسلطة حاكمة ودستور لا يجوز مخالفته وانتهاك حرمته .

المبحث الثاني : تحقيق العدالة والمساواة وحل النزاعات في إطار المجتمع الواحد .

قال تعالى : {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} سورة المائدة اية ٨ .

والمعنى : (لا يحملنكم بعض قوم على ظلمهم ، ومقتضى هذا أنّه لا يحملنكم قوم على محاباتهم والميل معهم)[١٢] .

قال صاحب تفسير الأمثل في تفسير هذه الآية: (فتخاطب هذه الآية أولاً المؤمنين قائلة{يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ } ، ثم تشير إلى أحد أسباب الانحراف عن العدالة، وتحذر المسلمين من هذا الانحراف مؤكدة أنّ الأحقاد والعداوات القبلية والثارات الشخصية ، يجب الاّ تحول دون تحقيق العدل، ويجب الاّ تكون سبباً للاعتداء على حقوق الآخرين ،لأنّ العدالة أرفع واسمى من كل شيء فتقول الآية الكريمة : { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا} وتكرر الآية التأكيد لبيان ما للعدل من أهمية قصوى فتقول:{ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ}.

وبما أنّ العدالة تعد من أهم أركان التقوى ، تؤكد الآية مرة ثالثة قائلة { وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}.

فالعدل ركن إسلامي مهم .... وليس من العجب والحالة أنّ يكون العدل واحداً من أصول العقيدة والدين ، وأساساً من أسس الفكر السياسي الإسلامي ، وهو مع كونه صفة من صفات الله سبحانه وتعالى ، ويدخل ضمن مبادئ المعرفة الإلهية ، الاّ إنّه يشتمل على معان واسعة في خصائصه ومزاياه) [١٣].

ومن هنا أوجب الإسلام على الحاكم أن يقيم العدل بين الناس دون النظر إلى لغاتهم أو أوطانّهم وأحوالهم الاجتماعية ومعتقداتهم، فدعى الإسلام إلى تحقيق العدالة بين المتخاصمين والحكم بالحق من دون أن تكون هناك مؤشرات على تحقيق العدالة كالغنى والفقر والقرابة والمحسوبية والمنسوبية .

وفي وثيقة المدينة نجد أنها أرست دعائم العدالة في المدينة المنورة إذ نستطيع ان نسميها بالمرحلة الانتقالية، فوضعت حداً للنزاع والفوضى التي كانت تتمثل بالحروب الدائمة بين قبيلتي الأوس والخزرج، فحل الوئام والسلام والاستقرار في ضوء تجسيد مبدأ الصفح والتسامح والمساواة والعدل بين الجميع وكذلك تم ترسيخ مبدأ حقوق الإنسان وإحترام الآخر، والغرض من كل ذلك هو بناء مجتمع قادر على تجاوز الماضي المثقل بالجراح والتطلع نحو المستقبل الأفضل.

فالوثيقة أمرت القبائل أن تتضامن لدفع الديات وجميع المؤمنين يتضامنون لمساعدة الفقير الذي لا يملك ان يساهم في فداء أسير ، أو دفع دية قتيل ، وبذلك تؤكد الوثيقة على تلبية حاجة من كان عليه دين ولم تكن له عشيرة تعينه على فداء أسيره، فقالت الصحيفة : يتعاقلون على ربعتهم كمعاقلهم الأولى، فعلى المسلمين إعانته في فداء ذلك الأسير.

المســاواة: وأمّا بخصوص المســاواة فهو مبدأ أســاس يســعى الإســلام إلى تحقيقه، فقــد أكدت وثيقة المدينة بنصــوص واضحة وصريحة على تحقيق هذا المبدأ فقد جاء فيها : إنّ ذمة الله واحدة وإنّ المســلمين يجير عليهم أدناهم، وإنّ بعضهم موالى بعض دون الناس وهذا معنى إنّ أصل هذه الوثيقة يتناصرون مع بعضهم في جميع الأحوال وفي الشدة والرخاء.

فالمســاواة مبــدأ يعزز الأواصــر الاجتماعية؛ لبنــاء المجتمع المســلم ومن يعيش فــي كنفه فقال تعالى : { يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ أَنّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ أَنّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }سورة الحجرات اية١٣.

وجــاء فــي الحديــث النبــوي : (يا أيهــا الناس إنّ ربكــم واحــد، وإنّ أباكم واحــد ، ألا لا فضل لعربي علــى عجمي ، ولا لعجمــي على عربي، ولا لأحمر على أســود، ولا لأسود على أحمر الاّ بالتقوى..)[١٤] .

وفي هذا الصدد قال الأستاذ شكري ناصر عبد الحسن : وأطلقت الصحيفة مبدأ المساواة بين أفراد المجتمع الواحــد... وأنّ المؤمنين يبيىء بعضهم على بعــض...، بمعنــى إنّ المؤمنين متســاوون فــي حقوقهم وواجباتهــم ، لا تفرق بينهم العناوين الجانبية كالانتماء إلى قبيلة معينة معروفة بقوتها، أو امتــلاك الأمــوال ، أو اللون ، هذا أبيض وهذا أســود ، أو حتى المكافئة الاجتماعية فلا فرق بين السيد والعبد ، وكذلك لا فرق بين المراة والرجل، الاّ بما يحافظ على الاستقرار الاجتماعي... [١٥] .

حل النزاعات في إطار المجتمع الواحد:

تبنى رســول (ص) مبدأ الاندماج الاجتماعي، ذلك بتفعيل مبدأ المصالحة المجتمعية التي ستكون أساساً راســخاً في موضوعة الاندماج والتصالح وأخلاقية التســامح بين مكونــات وأفراد المجتمع الواحد ، وهذا ممّا يستدعي التأصيل لبناء المجتمع المدني المتحضر وتجاوز جميع اخطاء وسلبيات العهــد القديــم وإحداث ثــورة إصلاحيــة انقلابية في المفاهيم والتصورات تســتند على اســس فيها المبــادئ والمثل العليــا التي جاءت بها الرســالة الإسلامية لإزالة كل الأحقاد والضغائن والفوارق الطبقية والاختلافات والنزاعات التي كانت سائدة فــي المجتمع الجاهلــي الذي تغلــب عليه العرف المنحــرف وحالة التقاتل ومبــدأ الثأر والتباغض والعصبيــات القبليــة ممّا يوكد عــدم وجود الأمن والاســتقرار لجميع مكونات الســاحة الاجتماعية ممّا حدا برســول الله (ص) بأن يقيم مبادرة شاملة تعصــف بكل هــذا المــوروث الجاهلــي وتضعه جانباً، ليحل محله مفاهيم أخلاقية عنوانها المحبة والمؤاخاة والتســامح والتعاون والتعايش السلمي واحترام الآخر في دينه وإنسانيته .

فعلــى ســبيل المثال جــاء النبي الأكــرم محمد (ص) بمبــادرة المؤاخــاة فكانــت هــذه المبادرة الســلمية ترتقــي بالإنســان والمجتمــع مــن حالة الشــخصنة والاعتداد بالنفس والعشيرة والمكابرة إلى مستوى إنساني رفيع يحترم الآخر في عقيدته ودينه ومبادئه وأعرافه ، ثم أنّ رســول الله (ص) أسبغ على هذا الفعل من المؤاخاة والتحابب سمات عبادية فأطلق عدد من الأحاديث النبوية الشــريفة التي تفرز هذه المفاهيم لتأصيلها وجعلها جزءً من الدين في التفاعل الإنساني فشملت عملية المؤاخاة الأنصار أنفســهم الــذي عقد معهــم بيعتين العقبة

الاولـى والثانية؛ لنصرة الإسـلام وبناء الدولة على اسـاس المفاهيم ومبادئ رسـالة الإسلام، كذلك شـملت المبـادرة الانصـار والمهاجرين من جهـة أُخرى لبنـاء المجتمـع الموحد الذي مثل بحق الرعيل الأول لبناء الدولة الإسلامية، علمـاً إنّ التسـامح الفـردي فـي هـذه المبادرة سوف يؤدي إلى تسـامح جماعي على مستوى القبائل فيما بينها وإزالة حالة الاقتتال والأحقاد المسـتعرة بين القبائل لاسيما بين قبيلتي الأوس والخزرج .

ومن نتائج هـذه المبادرة إنّهـا انتجت عملية تذويب متدرج للفـوارق والخلافات بين القبائل وأصبح الشـعار القائـم ومقيـاس التفاضل في المجتمع هو مقياس التقوى.

خلاصة القول إنّ هـذه المبادرة في المؤاخاة وحـل النزاعـات القبلية التي أذابها رسـول الله (ص) بحكمتـه وأخلاقه العظيمة وأحاديثه التي لا تنطـق عـن الهوى إن هـي الاّ وحي يوحى، كانـت لها آثـار عظيمة وآثـار اجتماعية كبيرة واستقرار روحي ونفسي لدى المجتمع ممّا ولد وانتج استقرارا وبيئة مناسبة؛ للتضامن والتكافل والتعاون لبناء نظام اجتماعي وسياسي فريد من نوعه لا يمكـن أن يرجع إلى الوراء، بل يتطلع ويستشرف المسـتقبل بدلا أن تكون ماثلة أمامه الأحقاد والرواسـب الجاهليـة التي تحكمت في النفـوس زمن الجاهلية ، أمّا الآن فقد اسـتبدلت المقاييـس والأفـكار والثقافـات التـي تضمنها مصدري التشـريع، وهما القـرانّ الكريم الذي نزل منجما يواكب الأحداث ويسدد خطى حركة الرسـالة، ويضـع الموازين والحـدود، ويعالج الأزمـات، ويعطـي زخماً قويـاً ودافعـاً للبناء الاجتماعي والسياسـي وهذا هو دور القران في المسـار الأول، وأمّا المسار الثاني فهو الحديث النبوي الشـريف فكانت حركة الرسـول(ص) كإمام ورسول ونبي مرسل قوله وفعله وتقديره حجة على البشـرية كشخصية معصومة ربانية تمثل أسوة في المجتمع الصالح .

هذان المسـاران عملا علـى إخراج المجتمع من دوامة الصـراع القبلي الجاهلي إلى مجتمع يعمل وفق مبادئ السـماء فـي العدالة والتعاون والتأخـي فأصبحـت للأمـة الإسـلامية هويـة ورؤيـة ونظـرة شـاملة نحـو الحيـاة والكون والإنسـان؛ ليعرف مصيـره ودورة في الحياة الدنيا لأعمارها بالقسط والعدل لتحقيق المنصب الـذي اعطاه الله له وهـو خلافة الله في الارض وذلـك في ضوء انشـاء مجتمع رسـالي يحمل هم الإسـلام ليجسـده ويحمله إلى العالم بأسـره كأمانة ومسـؤولية شرعية في إقامة حكم الله في الأرض .

المبحث الثالث: تحقيق مبدأ التعايش السلمي والمجتمعي وتكريس مبدأ المواطنة.

التعايش السلمي :

إنّ المقصود بالتعايش السلمي : هو عدم الانجرار إلى صراعات وحروب داخل الدولة الواحدة ذات الشعوب المتعددة الأعراق والديانات، إذ تعترف الأطراف جميعها بالأُخر القومي والديني والعرفي ، من دون أن يكون هناك اي نوع من الإلغاء والتعسف والإقصاء من قبل اي طرف تجاه الأطراف الأُخر، ويعرف مفهوم التعايش السلمي بأنّه : (انتهاج سياسة تقوم على مبدأ قبول فكرة تعدد المذاهب الأيديولوجية والتفاهم بين المعسكرين الغربي والشرقي في القضايا الدولية ، كما أنّه يقصد به أيضاً دعوة الأديان كافة إلى التعايش السلمي فيما بينها ، وتشجيع لغة الحوار والتفاهم والتعاون بين الأمم المختلفة)[١٦] .

يتضح لنا أنّ القران الكريم أسس لهذا المفهوم ودعا إلى تطبيقه بخطوات عملية وآليات واضحة قال تعالى: { قُلْ يَا أهل الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الاّ نَعْبُدَ الاّ اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَأَنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} سورة ال عمران اية ٦٤.

وقال تعالى : { وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} سورة النساء اية ٥٩ .

وقال تعالى : { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} سورة الانفال اية ٤٩ .

وقال تعالى : { وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلى اللَّهِ} سورة الشورى اية ١٥.

في هذه الباقة من الآيات الشريفة دلالة واضحة على الرجوع إلى الله ورسوله في حالة التنازع والاختلاف وحذرت من الفرقة وعدم طاعة الله والرسول ، وبذلك تتعزز وحدة المسلمين وغيرهم وإدامة حالة التعايش بين المكونات والطوائف المختلفة في المجتمع الواحد، فالمبدأ الذي عرضته الآيات الكريمة هو مبدأ الحوار والتفاهم والتوافق على المشتركات التي تومن بها جميع الأطراف من دون الانحراف عن الثوابت التي جاءت بها الأديان السماوية كالتوحيد، والنبوة، والمعاد، وهذه قاعدة إسلامية ومنهاج قويم لإرساء حالة السلم والاستقرار والتعايش بين افراد ومكونات المجتمع .

والتطبيق العملي لهذا المبدأ القرآني كان قد تجسد في الوثيقة النبوية والتي جاء فيها (وأنكم مهما اختلفتم) إذ إنّها أرست قاعدة للاستقرار الأمني والاجتماعي والسياسي في المدينة ؛ إذ إنّ رسول الله (ص) كان قد نجح نجاحاً كبيراً في بناء المجتمع المتكامل المبني على مبدأ التعايش السلمي ، وفي هذا الإطار ذكر جعفر مرتضى العاملي : (ولهذا القرار أبعاده السياسية ، وله آثاره الحقوقية ، النفسية والعاطفية والفكرية والمعيشية والحياتية بصورة عامة)[١٧] .

إذن هذه الوثيقة السلمية كان الغرض منها صناعة مجتمع مؤمن يدافع بعضه عن بعض ويوالي بعضه بعضا ، فالوثيقة كانت بمثابة حالة تضامن وطني اعتمدت الحوار والاتفاق على

المبـادئ والمشـتركات الأساسـية والإعتراف بمجتمـع المكونـات التـي تشـكل منهـا البلد؛ لضمان حقوقها وحرياتها من ممارسة طقوسهم وشـعائرهم الدينيـة وفعالياتهـم الاجتماعيـة والاقتصاديـة ومـا يترتـب عليهم مـن حقوق وواجبات .

المواطنة :

اسـتعرضنا سـابقا ما تضمنته الوثيقة على صعيد التأصيل الدستوري وإرساء مبدأ التعايش السـلمي والمجتمعـي والمؤاخـاة بيـن أفـراد المجتمع ومغادرة النزاعـات القبلية والكراهية وكذلك مرجعية فـض النزاعات والاختلافات؛ ليكون المرجع فـي ذلك كله هو الله تعالى الذي لـه الحاكمية فـي الكون والمجتمـع واصطفائه لرسـول الله محمد (ص)؛ ليكـون خاتم الأنبياء والمرسـلين كقيـادة ربانية تمتلك حق السـلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية .

وتوصلنـا في ضـوء اسـتقرائنا لمحتويات وثيقـة المدينة من أنّ النبـي الأكرم ثبت قواعد السـلام والعدالة والتعايش السـلمي والتضامن الوطني وتكريـس مفهوم المواطنة الذي أصبح أصـلا ثابتـا في ذهـن الأمة كمسـلمين وغير مسـلمين؛ لأنّهـم جميعا يشـتركون العيش في وطـن واحـد يدافعـون عـن حياضـه وثغوره وسـيادته فالوثيقة إذن تحمـي أهل الدار وجميع مكونات المجتمع والجامع المشترك بين الأفراد هو مفهـوم المواطنة ، كذلك رأينا إنّ الوثيقة قد أخرجت ووضعـت حداً فاصلا لـكل المعتدين والغربـاء والخارجيـن عن القانون والدسـتور الذي سـنته هذه الوثيقة ، كما أنّها وضعت أيضا حـداً للفوضى والاعتداءات المسـتمرة وانتقلت بالمجتمع إلى حالة الاسـتقرار والأمن والسلام، فيقول الأستاذ حسن السعيد (إنّ المواطنة ليست شـعارا عابـرا، بـل هي مفهـوم أصيـل أكدته الصحيفـة ، وهـي ترسـم الإطار العـام للحكم والإدارة فـي مرحلة التأسـيس)[١٨]، وفي هذا قيل أيضاً : (تفيد دراسة نصوص الصحيفة أنّ المواطنة لاتسـاوق الانتمـاء الديني ، بل يمكن أن تفتـرق عنه ، حين يكون المجتمع السياسـي مكونا من فئات ذات انتماء ديني متنوع ..... ويبـدو أنّ الصحيفة فتحت البـاب أمام انضمام فئـات أُخـرى إلى المجتمـع السياسـي والدولة الإسلامية) [١٩] .

خلاصـة ما تقـدم يمكننا القـول : إنّ وثيقة المدينـة تجاهلت بصـورة كاملة مسـألة مهمة جـداً كانـت مثار جدل بيـن المفكريـن وهي : (إلزام الأديان الأخرى بتطبيق أحكام الشـريعة الإسـلامية)، وهذا يعبر عن مـدى الثقة الكاملة التي يتمتع بها رسـول الله (ص)بمهنية التشريع والديـن الإسـلامي كأطروحـة سياسـية كونية واسـعة تسـتوعب الواقع وتحتويه ، قال تعالى في محكم كتابه الكريم: { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُـدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِـرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ..} سـورة التوبـة ايـة ٣٣ ، إذ إنّ خضوع وقبول هذه المبادرة العظيمة من قبل جميع مكونات المدينة يـدل على مكانة وتأثير وقيادة وحنكة الرسـول الأكرم محمد (ص) وتأثيـره البالغ على الواقع آنـذاك ،من المفارقات التي يجب أن نذكرها هو أنّ الرابطـة الدينية لم تكن هي الحاكمة في هذه الوثيقـة حتـى ولو أنّ رسـول الله (ص)كان قد جـاء بدين الحـق الذي هو خاتم الأديان ناسـخا

لكل الشـرائع السماوية السابقة ، لكنه (ص) جعل رابطـة المواطنـة في هـذه الوثيقة هي الأسـاس والأصـل الـذي يمكن فـي ضوئـه بنـاء الدولة والمجتمع المتماسك مهما اختلفت تنوعاته ، وبذلك يمكن الاسـتنباط بـأنّ رسـول الله محمد(ص) قد أعطى المشروعية الكاملة للتنوع الديني والقومي وكذلك مشروعية التعدد، ذلك في ضوء المشاركة الجماعية الفاعلة على أسـاس الدستور الإسلامي الحاكـم ، وبعبـارة أُخرى يمكن القـول بأنّ الدين الإسـلامي (يتقبل فكرة تأسـيس مجتمع سياسي متنوع في دولـة واحدة ، ونظام حكم واحد، على أساس الإسـلام يتمتع الجميع فيها بحق المواطنة الكاملة)[٢٠] .

إذن إنّ رسـول الله (ص)كان قـد أبـرم هـذه الوثيقـة في مجتمـع المدينة المتنوع على أسـاس حق المواطنة وعلى أسـاس المساواة في الحقوق والواجبـات بغض النظر عـن الدين أو العرق أو الجنس؛ إذ إنّ المتواجدين في المدينة هم مسلمون ويهـود ومشـركون وفيهـم العربـي والفارسـي والرومي والحبشي وفيهم الذكور والإناث ، لذلك أجـاد من قـال : (أنّ تلمس جوهـر وثيقة المدينة يوضح المشـتركات القيمية مع مبـدأ المواطنة ، فقـد قامت على الاعتراف بالتعددية وإقرار حرية المعتقد وعضوية الانتماء إلى الجماعة السياسـية والشـراكة والمسـاواة فـي الحقـوق والواجبات المعنويـة والمادية ، كما منحتهـم التكافؤ والعزة والكرامة في ظل التجربة المشتركة التي تعتمدهم جميعا)[٢١].

المبحث الرابع : المعطيات السياسية لوثيقة المدينة .

توصلنـا في المباحث الثـلاث الماضية إلى أنّ رسـول الله (ص)أراد أن يثبت القواعد والأسـس لبناء الدولة الحضارية وبأسس واقعية تتماشى مع ظـروف المدينة آنذاك ؛ إذ انبثقـت وثيقة المدينة كقاعدة دستورية تعالج أمهات القضايا في صناعة الإنسـان والمجتمـع فلابد من هندسـة للدولة كي ترتكز على أركان كما أشرنا إليها سابقا ، وعرفنا بأنّ هـذه الوثيقـة تعد الصـورة الالهيـة المثالية والأنمـوذج المعبّر عن الحكمـة الربانية في بناء المجتمعات ، وهي بمثابة تطبيق بشـري متكامل للتجربة السياسية الذي خاض غمارها رسول الله (ص)، من دون أن نعني بذلك التجربة السياسـية الإسلامية بصورة عامه لما بعد النبي (ص)، ذلك لحصول حالة الانحراف عن المسار الذي وضعه وخطط إليه النبي الأكرم، فكان المُلك العضوض فأفـرزت معطيـات سـلبية كثيـرة خصوصاً في الدولتين الأموية والعباسـية، وحتى سقوط الدولة العثمانية وإلى يومنا الحاضر، ذكرنا أنّ الإسـلام هو مشـروع حضـاري لبناء الإنسـان والمجتمع ومن ضروراته إقامة دولة الحق والعدل ، ودولة الرحمـة الإلهيـة علـى الأرض ، ومـن بواكير التأصيل والتأسـيس لهذه الدولة هي وثيقة المدينة فكانت لهذه الوثيقة معطيات سياسية لابد من ذكر أهم هذه المعطيات :

١- أعطـت الوثيقـة احترامـاً خاصاً للإنسـان فـي مجتمـع المدينـة سـواء كان هـذا الإنسـان مسـلماً أم كتابياً أم مشـركاً جعلته الوثيقة محوراً وهدفـا وموضوعاً لها فأصبح الإنسـان في هذه الوثيقـة موضوع الحكـم، وهذه المسـالة المهمة (إنسـانية الإسلام) تُعد من أهم مرتكزات الفلسفة

السياسية في الإسلام ، انطلاقا من إنّ الله تعالى خلق الإنسان وسخر كل شيء في الكون من أجله ليحظى؛ بعنوان خلافة الله في الأرض ويرتقي إلى مستوى هذا المنصب الرفيع ، قال تعالى: {وَإِذ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} سورة البقرة اية ٣٠ وقال تعالى : {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} سورة البقرة اية ٢٩.

٢- إقامة العدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس في الحقوق والواجبات ، ويتضح من فقرات الوثيقة إنّ رسول الله محمد (ص) قد أكد على الأمر بالمعروف والقسط بين المؤمنين لذلك قال في فلسفة النظام السياسي في الإسلام:(أنّ إقامة العدالة الاجتماعية وضمان الحقوق الإنسانية، تشكل محوراً لجميع الأحكام الاجتماعية والفقه السياسي في الإسلام ، من هنا فإنّه يواجه بحزم، أولئك الذين يحاولون استغلال الناس واستضعافهم، أو تحقيق مكاسب اقتصادية أو اجتماعية لأنفسهم أو طبقتهم، من خلال الإفساد والتعرض لحقوق الآخرين)[٢٢].

٣- عبرت الوثيقة عن قوة واقتدار النظام السياسي في الإسلام، إذ إنّ رسول الله (ص) بادر لتنظيم وضع المدينة بهذه الوثيقة من الناحية الأمنيةً والإداريةً والاجتماعيةً ليضمن حقوق جميع مواطني مجتمع المدينة مبادراً ومستنداً إلى مبادئ الإسلام ومنهجه القويم في احقاق الحق وازهاق الباطل ليفهم المجتمع بالعدل الإلهي؛ إذ مسك رسول الله (ص) بهذه المبادرة بزمام الأمور وفرض نفسه واتباعه من المسلمين على إنّهم أصبحوا قوة على الأرض تمتلك هذه المجموعة بقيادة نبيها الكريم رؤية عقائدية متينة ورسالة شاملة في الأحكام والتصورات لجميع نواحي الحياة، وفق نظام عملي ينبثق من هذه العقيدة؛ ليعالج الواقع المعاش ويضمن سعادة المجتمع.

٤- وضعت الوثيقة خارطة طريق وأساس؛ لقيام دولة مركزها المدينة، إذ خضعت جميع الأطراف إليها فكانت المرجعية هي قيادة الرسول محمد (ص)، ومن آثار هذا الإنجاز إنّها فوتت الفرصة لقيام دول متعددة نستطيع تسميتها بدولة الطوائف التي تمزق المجتمع وتبحث على عدم الأمن والاستقرار.

٥- القيام بتأسيس دولة مدنية ذات عناصر وأركان في وقت لم يكن يعرف أنّ للدولة أركان وعناصر، وهذه الأركان تمثلت بالأمة شعب ومواطنين، وكذلك وجود إقليم تم تحديده جغرافيا مركزه المدينة المنورة ليتوسع فيما بعد إلى دولة مترامية الأطراف في الكرة الأرضية، كذلك وجود حكومة تنفيذية يقودها نبي مرسل معصوم كمرجعية وضعت دستوراً وقانوناً للفصل في القضايا وحل النزاعات والحكم في الخصومات؛ ليشكل الركن الرابع للدولة.

٦- أسست الوثيقة مفهوم التعايش السلمي وإنهاء الفوضى والنزاعات التي كانت سائدة والحروب المستديمة والتباغض القبلي وعمليات الثائر والتنابز والتفاخر لتستبدل ذلك بمفاهيم إنسانية وقيم ومثل عليا كالتعاون والتأخي والمحبة واحترام الآخر والتضامن والتكافل الاجتماعي فوضعت حداً للحروب الأهلية والكراهية في المجتمع .

٧- احترمت الوثيقة عقائد وديانات الآخرين ودعتهم إلى ممارسة عباداتهم وشعائرهم بكل حرية واحترام وعدم الإكراه في فرض المعتقدات؛ إذ أنهت الوثيقة أصحاب الامتيازات المادية والروحية والمعنوية فأصبحت القوة الروحية الحاكمة هي روحية الدين الإسلامي ومنهجه في الحياة .

٨- أكدت الوثيقة على مبدأ المواطنة وجعلتها أصلا ومبدأ لا يمكن التفريط به؛ إذ شكل هذا المفهوم الجامع المشترك الذي يحمي وينضوي تحته جميع مواطني الدولة الذين لهم حق الحياة وحق الملكية وحق الأمن على الأموال والأنفس والأعراض.

خلاصة ما تقدم يمكننا القول تعد وثيقة المدينة دستوراً أولياً احتوى على مضامين كثيرة لبناء الدولة واستقرار المجتمع إذ أنّها تضمنت أبعاد حضارية وسياسية تعبر عن قدرة الفكر السياسي الإسلامي في بناء الدولة والحضارة.

الخاتمة

في ضوء المباحث الأربعة المتقدمة وجدنا أنّ هناك فضاءً واسعاً نطل عليه في ضوء النظر في طيات وثيقة المدينة فتوصلنا إلى أفكار ورؤى جديرة بالاهتمام من قبل الباحثين ومن هذه الأفكار والحقائق :

١- التبليغ للرسالة الإسلامية التي هي مهمة النبي الأكرم (ص) المكلف بها من الله تعالى كان لابد له أن يؤسس لدولة ذات عناصر وأركان تكون هذه الدولة أنموذجا ومنطلقا؛ لتبليغ رسالة الإسلام إلى العالم اجمع .

فكان الدعاة إلى الله ينطلقون من المدينة يبلغون الناس بالإسلام ويسلمون مكاتيب رسول الله إلى الملوك في الأرض لشرح مقاصد ومعاني رسالة الإسلام إلى العالم؛ لأنها رسالة عالمية شاملة إلى جميع البشر.

٢- تبين لنا إنّ أطروحة وثيقة المدينة تفيض بفلسفة سياسية إسلامية فريدة ، فأبرزت هذه الفلسفة مفاهيم سياسية إنسانية منها : الملازمة بين الدين والسياسة ، مقارعة الاستبداد والطغيان والفساد ، إنّها اثبتت محورية الإنسان في التعامل السياسي الإسلامي ، مع إقامة العدل الاجتماعي ومكافحة الفقر ودعت إلى التضامن الاجتماعي والتعايش السلمي ، بالإضافة إلى احترام العقود والمواثيق والإلتزام بها ، وحل النزاعات الداخلية عن طريق التعاهد والتعاقد والاحتكام إلى الدستور، واحترام الأقليات في المجتمع الإسلامي .

٣- التأكيد على وحدة الأمة والعمل على صناعة النظام السياسي المقتدر ، إذ أنّ الأمة يكون لها دور أساسي في تكوين الحكومة الإسلامية ، ودور آخر في الرقابة على أداء الحاكمين والمؤسسات الحكومية ومحاسبتها للمقصرين.

٤- اعتمدت الوثيقة منظومة أخلاقية رائعة تعزز من قوة وتماسك المجتمعات وبقائها حية، إذ تعتمد هذه المنظومة على العلم والمعرفة والصبر والتقوى والجهاد بالنفس والمال ، ومكافحة الاستضعاف ، واستقامة الإنسان، واحترام المواثيق ورعاية القيم الإنسانية ومحاربة الفقر وأداء الأمانة .

٥- ثبت لدينا أنّ المواطنة مبدأ أصيل في الإسلام لايساوق الانتماء الديني فتعتبر المواطنة قاسما مشتركاً ومعياراً اخلاقياً للمواطنين في الفكر السياسي الإسلامي، فالدين الإسلامي يتقبل فكرة تأسيس مجتمع سياسي متنوع في دولة واحدة ونظام حكم واحد على أساس الإسلام.

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

الهوامش

١- محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية، ص ٤٠.

٢- مجموعة مؤلفين ، وثيقة المدينة ، دراسات في التأصيل الدستوري في الإسلام ، مركز الحضارة لتسمية الفكر الإسلامي ، ص٧.

٣- محمد حسين الطباطبائي ، الميزان في تفسير القران ، ، ج٢ ، ص ٩٣-٩٤

المصدر نفسه : ج ١٤ ، ص ٢٦٢ .

٤- محمد باقر الصدر ، سلسلة الإسلام يقود الحياة ، ص ٢٩ .

٥- ينظر : احمد راتب عرموش ، قيادة الرسول السياسية والعسكرية ، ص٩٣.

٦- وثيقة المدينة ، دراسات التأصيل الدستوري في الإسلام ، مصدر سابق ، ص٤٠ .

٧- ينظر : ظافر القاسمي ، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ، ج١ ، ص٣٧.

٨- سمير عالية ، نظام الدولة والقضاء والعرف في الإسلام ، ص ٣٥ .

٩- ينظر : ظافر القاسمي ، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ، مصدر سابق، ص ٣٧ .

١٠- مجموعة مؤلفين ، وثيقة المدينة ، دراسة في التأصيل الدستوري ، مصدر سابق ، ص٤٥ .

١١- محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير ، ج٥ ، ص٥٥.

١٢- ناصر مكارم الشيرازي ، الامثل في تفسير كتاب الله المنزل ، المجلد الثالث ، ج٦ ، ص ٣٧٧- ٣٧٩ .

١٣- المصدر نفسه،ج٦،ص٢٧٩.

١٤- ينظر : احمد بن حنبل ، المسند ، ج٥ ، ص٤١١ .

١٥- مجموعة مؤلفين ، شكري ناصر عبد الحسن ، وثيقة المدينة ، دراسات في التأصيل الدستوري ، مصدر سابق ، ص٦٩.

١٦- ينظر: يكبيديا الموسوعة الحرة ، النسخة العربية ، مادة : (EACEFUL CO-EXISTANCE) .

١٧- جعفر مرتضى العاملي ، المجمع من سيرة النبي الاعظم ، ص٢٥٦.

١٨- حسن السعيد , قضايا اسلامية معاصرة, الإسلام والرأي الآخر, ص٨٥ .

١٩- محمد مهدي شمس الدين ، نظام الحكم والادارة في الإسلام ، ص٥٣١ .

٢٠- مجموعة مؤلفين ، وثيقة المدينة ، دراسات في التأصيل الدستوري ، مصدر سابق ، ص ١٨٩ .

٢١- المصدر نفسه ، ص١٩٠.

٢٢- د. عبد الله حاجي الصادقي ، فلسفة النظام السياسي في الإسلام ، ص٢٢٥.

المصادر

القران الكريم

١- أحمد راتب عرموش ، قيادة الرسول السياسية والعسكرية ، دار النفائس ، ط١ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨ م .

٢- حسن السعيد ، قضايا إسلامية معاصرة، الإسلام والرأي الآخر ، دار الهدى ، ط١ ، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م.

٣- سمير عالية. الناشر، بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. تاريخ الإصدار، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧م.

٤-ظافر القاسمي ، تظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي ، دار النفائس ، ط٦ ، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.

٥- د.عبد الله حاجي الصادقي ، فبسفة النظام السياسي في الإسلام ،مركز الهدف للدراسات، ط الأولى ، ١٤٣١ هـ – ٢٠١٠م.

٦- عفر مرتضى العاملي ، المجمع من سيرة النبي الأعظم ، ط٤، دار الهادي ، بيروت،١٩٩٥م.

٧- مجموعة مؤلفين ، وثيقة المدينة ، دراسات في التأصيل الدستوري في الاسلام ، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي ، سلسلة الدراسات الاسلامية ، اعداد وتقديم د. عبد الامير زاهد ،ط ١ ، بيروت ٢٠١٤.

٨- محمد حسين الطباطبائي ، الميزان في تفسير القران ، دار إحياء التراث، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٧ ه – ٢٠٠٦ م .

٩- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة المؤلف: محمد حميد الله الحيدر آبادي الهندي (المتوفى: ١٤٢٤هـ) الناشر: دار النفائس - بيروت - ١٤٠٧ ط٥.

١٠- محمد الطاهر بن محمد بن محمد بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)الناشر : الدار التونسية للنشر - تونس سنة النشر ١٩٨٤م.

١١- السيد محمد محمد باقر الصدر. الناشر : مركز الأبحاث والدراسات التخصصية -الشهيد الصدر-قم. تأريخ الاصدار : ١٤٢٩هـ.

١٢- مسند الإمام أحمد بن حنبل، الناشر: مؤسسة الرسالة ويكبيديا ، الموسوعة الحرة ، النسخة العربية .

١٣- محمد مهدي شمس الدين ، نظام الحكم والإدارة في الإسلام ، ط٢ ، بيروت ،١٤١١ هـ – ١٩٩١ م.

١٤- الناصر مكارم الشيرازي ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ط١ ، ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م.

Culturaland politicaldimensions Of al-madinah document

Dr. muayad saaber AL- obaidi
Bilad al-rafedain university college

Document of the city (Madinah) is considered to be an initial constitution contained great senses to construct a state and the stability of the society, it contained as well civilizational dimensions which express the ability of Islamic political thought to construct the state as well as the civilization.

-The research has contained four axes :-

First:The most important constitutional highlights in the Document of the city(Madinah) are :

1.Specifying the supreme authority to the executive, legislative and judicial powers.

2.Specifying the concept of Nation (the Islamic Nation) and the coalitions followed them to guarantee the rights of the society.

3.Specifying the elements of the state which are people, constitution, Governing authority and Sovereign region.

Second: Achieving justice and equivalence as well as Conflict resolution in the society. As we have seen how the document has paid attention to the principle of justice and equivalence then appealing to the supreme leadership to settle the conflicts and to know the rights and duties.

Third: Achieving the principle of peaceful and social coexistence with setting up the base of citizenship. As we have seen how the document has contained the rights of all and left pre-Islamic paganism traditions which were replaced by moral concepts and ideals which have changed the intellectual and cultural reality of the Islamic society towards establishing civilization, then we have recognized that the principle of citizenship is a noble origin principle adopted by the Islamic political thought as a measure and standard for the native of the country.

Forth: the political data of the document of city has emphasized on the centrality of human and the administration of social justice and a state with well-established institutions, it emphasized also on the principle of peaceful coexistence and respect others and embodying the principle of citizenship.